خاتمة

سعى هذا العمل إلى دراسة مجموعة من المفاهيم ذات التأثير والتوجيه القوي في الثقافة العربية والإسلامية. دراسة تتعلق بتاريخية هذه المفاهيم، نشأةً وأصالةً وتداولاً.. في الفكر التاريخي التراثي وفي الفكر الحديث والمعاصر. وهي تنطلق في ذلك كله من وضع الفكر الراهن في الأمة الذي «عجز» عن احتواء مشكلاتها وتحديد الوجهة الصحيحة لانطلاقها. الفكر الذي افتقد القدرة على التأطير التربوي والتكوين العلمي الناهض بالأمة والملتحم بهمومها وقضاياها، المستشعر إلى أبعد حد ممكن لمسؤولياته وواجباته تجاهها. الفكر الذي ساهمت في تشكيل وصوغ وضعه الراهن عوامل شتى يمكن إجمالها في عاملين أساسيين:

يتجلى الأول في سيادة **تقاليد عصور الانحطاط** وهيمنتها على جمهور الأمة وفئات كبيرة من علمائها ومثقفيها. التقاليد التي أصبحت وسيطاً بين الأمة وبين مصدرها التشريعي، وحي ربِّها المنزل. بل أضحت نظاماً فكرياً مطرداً من كثرة الاستعمال والتداول، مارس تحريفاً خطيراً على المستوى العقدي والتصوري وعلى المستوى السلوكي والعملي في الأمة، حتى إنه ليمكن القول، ومن غير مبالغة، أنها تدين بنسبة كبيرة في تكوينها العقدي وفي فكرها الشرعي إلى مقررات هذه العصور وتقاليدها لا إلى الشرع نفسه، فبات الاستمداد منها لا منه، والتدين بها لا به، والرجوع إليها لا إليه. يتجلى خطر هذا النظام أيضاً في كونه صار على درجة من الوثوق والتعقيد

والاستقرار بعد اصطلاحات المذاهب والمدارس وتقييدات وتضييقات الممارسة التاريخية، تثني عزم كل محاولة تصحيح وتغيير أو اجتهاد وتجديد.

ويتجلى الثاني في **التقاليد الوافدة** من الحضارات والثقافات الأجنبية ذات النزعة الحلولية الاستعمارية التي مارست بدورها ـ ولا تزال ـ أخطر تشويه وتهديد لثقافتنا وحضارتنا خاصة بعد المرحلة الاستعمارية المتأخرة التي عملت على تجزيء الأقطار العربية والإسلامية وإقامة الحدود والفواصل الفكرية والسياسية.. حيث غزت عالمنا الفكري بطوفان من المفاهيم والمصطلحات في مختلف مجالات المعرفة وأحكمت بذلك تبعية هذا العالم لها ومشيه على خطاها. كان هذا العمل إجهازاً على ما تبقى من المعرفة الحية المتعلقة بالذات والهوية. وخطر التحدي الخارجي كامن، من ناحية، في كونه يعتمد وسائل تقنية وعلمية حديثة في الغزو الفكري والعقدي والتربوي والسلوكي العملي.. كآلة الإعلام الضخمة الآن، حيث تتجلى شراسته كخصم. ومن ناحية أخرى، في كونه يقدم نفسه نموذجاً للمجتمع المعاصر، المتطور، المتقدم، الحداثي.. حيث يؤسس لمقدمات الاستتباع، وحيث تتجلى مخاطر الاستلاب والارتهان له في الأمة، سواء تعلق الأمر بالنخب السياسية والمثقفة أم بالعامة والجمهور.

إنه باختصار واقع التقليد والتبعية، أو ما يسميه البعض «**واقع الاغتراب الزماني والمكاني**». الزماني بالتشبث بالمقولات التراثية والتاريخية الجامدة. والمكاني بالانبهار والالتحاق بنموذج خارجي يقف على أرض حضارية ذات خصوصيات مغايرة أصولاً وفروعاً توجهها فلسفة علمانية شاملة.

إن الذي يذهب ضحية واقع التقليد هذا بنوعيه: **العقل** في الإنسان. العقل الذي تقتل فيه روح المبادرة والاجتهاد والتجديد والإبداع..، العقل الذي يتم اغتياله بنظم من التربية والتكوين قائمة على مناهج التلقين والتقليد

الراكدة والوافدة، والتي لا تستطيع أن تؤهل في الأمة جيلاً يقودها نحو الخلاص. وما كرَّم الشرع الإنسان وكلفه بالتكاليف والتعمير والاستخلاف وسخر له المخلوقات.. إلاّ لخاصية العقل فيه. إن إلغاء العقل والارتهان للآخر، له خطر مضاعف على الأمة: فهي ـ من جهة ـ تبتعد مسافات كبيرة عن النهل من معينها الصافي، القرآن الكريم وصحيح السنَّة، ثم هي ـ من جهة أخرى ـ تلغي واقعها الحالي الذي به وفيه تتحقق مناطات التنزيل الشرعي وأشكال التدين عادة وعبادة. هذا علماً بأن ركب الأمم الأخرى لا يتوقف ولا ينتظر.

انطلاقاً من هذه الأرضية التصورية، على وجازة القول فيها، حاولت الدراسة الانطلاق من إعادة بناء بعض المفاهيم التي تعتبرها محورية وجوهرية في فكرنا العربي والإسلامي الراهن. مركزة في ذلك على أصل التوحيد والوحدة في الأمة أمام مظاهر التجزيء والجزئية فيها فكراً وسلوكاً، ومساهمة في بناء فكر الوحدة الجامع بين مكونات الأمة المختلفة ذات الأسس المرجعية والمنهجية المشتركة أصولاً على الأقل، إن لم تكن فروعاً. فكان التركيز على مفاهيم **الاجتهاد والتجديد والاتباع** باعتبارها مداخل حيوية لاستعادة الفكر والعقل المسلم لفاعليته وبنائيته في الأمة. كما كان النقد موجهاً لمفهوم **التقليد** وآثاره التربوية والفكرية السلبية على أجيال الأمة المتعاقبة. كان التركيز كذلك على مفاهيم مستوعبة شاملة تعكس كونية الرسالة وعموم خطابها، **كالأمة والمرجعية والعالمية**، حيث تتماهى علوم الإنسان والكون مع الوحي وهدايته المكنونة في آياته. كل ذلك في سياق تتبعي نقدي **لعوامل الانهيار والانحسار** في جسم الأمة من خلال **مقاربات** تاريخية قديمة وحديثة ومعاصرة، ونماذج إصلاحية مختلفة.

ومن الملامح المنهجية العامة التي وظفت في دراسة هذه المفاهيم:

* أنها لم تدرس كمفاهيم نظرية مجردة، بل درست في سياقاتها التاريخية المحيطة بها تأثيراً وتأثراً، دراسة موضوعية حاولت ما أمكن استيفاء أهم الدلالات والأبعاد التي تحملها وأشكال التداخل والتكامل أو التقابل

بينها. وهذا ما تم التعبير عنه بالأسس **المرجعية والمنهجية**.

* اعتماد مسطرة دقيقة في تتبع التطور التاريخي والدلالي لهذه المفاهيم، تبتدئ باستقراء المعاجم اللغوية، ثم المعنى الشرعي من الكتاب والسنَّة مع اعتماد تفاسير وشروح مختلفة. ومع كل مصطلح ومفهوم يكون التوقف عند المعنى **الشرعي** توقفاً خاصاً، إذ هو المعنى الحقيقي الذي ينبغي أن يرافق رحلة المصطلح وأن يحدد مفهومه القار لا الاصطلاحات المتأخرة عنه والتي غالباً ما تنسب إليه وهي ليست كذلك. وغالب المفاهيم المدروسة كانت في تعريف الشرع لها، على قدر كبير من **الانفتاح والاستيعاب** قبل أن يطالها ما طالها من تضييق وتخصيص. ثم بعد التعريف الشرعي نقف على التداول والاستعمال التاريخي أو اصطلاحات الفرق والمذاهب والمدارس والتضمينات التي تعطى لهذه المصطلحات فيما يعرف بالاصطلاحات العلمية الخاصة التي هيمنت على كثير من تلك المفاهيم ووجهتها وجهتها الخاصة. ثم بعد ذلك، الاستعمال والتداول الراهن والمعاصر الذي كان وما يزال التأثير فيه واضحاً للوافد الغربي، الذي استطاع ليس فقط أن يوطن مصطلحاته ومفاهيمه ولو على أصولها الأجنبية، ولكن أيضاً أن يسلب كثيراً من المفاهيم دلالاتها الأصيلة ويستبدلها بدلالات دخيلة أصبحت لا تعرف إلا بها. الأمر الذي يجعل عملية **التحرير** المفهومي صعبة جداً وتحتاج إلى جهد ومعاناة حقيقيين على واجهتين: التحرير من التضمينات السلبية التاريخية «الأصيلة»، والتحرير من التضمينات السلبية المعاصرة «الدخيلة». وأعتقد أن طائفة أخرى من المفاهيم المؤسسة لثقافتنا ما تزال الحاجة ماسة إلى إعادة بناء وتحرير.

هذه إذن، محاولة في العمل المستوعب الذي حاول ربط الماضي بالحاضر والمستقبل، ونظم قطاعات معرفية وجزر فكرية يعمل كل منها على شاكلته، على ما بينها من قضايا مشتركة مرجعياً ومنهجياً، فلا ينتفع بجهدها الفردي ولا يستفيد بعضها من بعض. ثم إن الخلاصات والنتائج والعبر المتضمنة في مباحث وفصول وأبواب هذا العمل ـ وما في معناها مما يمكن استخلاصها من أعمال أخرى ـ من شأنها أن تمكن هذا الفكر إذا استجمع قواه: من تجاوز المشكلات التي وفدت عليه واستنبتت في أرضه استنباتاً

والتي فرقت وبددت أكثر مما جمعت ووحددت، من تجاوز المشكلات الموروثة وكف نزيفها الفكري. والتركيز بدل ذلك على مكامن القوة فيه ونقاط الالتقاء والتعاون، والحفاظ على مساحة الخلاف في إطار الوحدة الجامعة، وعلى الخصوصيات الذاتية في إطار الانفتاح والعالمية. وفي جملة، من الإسهام في بناء ثقافة الوحدة والتكامل.

وعلى المكونات الفكرية المختلفة العاملة في حقل الأمة، أن تدرك ما تقدم بعمق، وأن تراجع ـ وقد بدأ بعضها يفعل ـ ما كانت تعتبره بديهيات ومسلمات لديها، وأن تختار الأرض الصلبة المدعومة بأنفاس الأمة التاريخية والراهنة وكذا تطلعاتها المستقبلية. أرض الذات بمرجعيتها الدينية والتاريخية والحضارية...

ثم بين يدي ذلك كله شرط لا بد منه، هو إخراج «**الأمة المجتهدة**» المدركة لواجباتها التكليفية الجماعية في الاستخلاف والتعمير..

فرسالة خالدة لا يمكن أن تنهض بها أمة نائمة..

ورسالة عالمية كونية لا يمكن أن تنهض بها فئات لا ترى للعالم لوناً إلا ما تريده هي أن يكون عليه..

ورسالة قامت أول ما قامت على القراءة والعلم والقلم والخلق.. لا يمكن أن تنهض بها أمة يمزق الجهل وتقطع الأمية أوصالها..

ورسالة قامت على التوحيد والتوحد لا يمكن أن تنهض بها أمة بينها مما يفرق أكثر مما يجمع ويوحد..

ورسالة قامت على العزة والكرامة والإباء بما في ذلك من قيم التواضع.. لا يمكن أن تنهض بها أمة تذيقها الأمم ألواناً من الذل والهوان.

وأحسب أن هذا العمل إسهام متواضع في هذا المجال، مستشعر وبحدة للمعطيات سالفة الذكر. وإن لم يكن له من جهد إلا أن يحرر إطاراً للوحدة والعمل الجماعي، وأن يعيد إلى الواجهة ويضع بين يدي مكونات الأمة الفكرية موضوعاتها الكبار. لكان ذلك ـ ربما ـ شفيعاً له ولصاحبه في سلخ أعوام من العمل المضني في ظروف جد صعبة، وفي أن يكون لبنة من اللبنات الباعثة لفكرة **الأمة**، ولمبدئها القطب **التوحيد**.